الفصل التاسع

الجولان تحت الاحتلال

وصف عام لمرتفعات الجولان

تقع الجولان في جنوب غرب سوريا. تلتقي مع الأراضي اللبنانية في الشمال عند جبل الشيخ، وفي الجنوب توازي الأراضي الأردنية حيث يفصل بينهما نهر اليرموك. ومن الغرب يحدها إصبع الجليل الفلسطيني وبحيرة طبرية. وهي تشكل السلسلة الشرقية من الجبال التي تحيط بسهل الحولة الواقعة في شمال فلسطين والذي يعبره نهر الأردن. تشكل جبال صفد السلسلة الغربية المقابلة تماماً للمرتفعات. وبحكم موقعها، تعتبر المرتفعات نقطة التقاء الأراضي التي تشكل سوريا الطبيعية.

الجولان عبارة عن هضبة ترتفع تدريجياً كلما توجهنا من الجنوب إلى الشمال. فبينما يبلغ ارتفاع بعض الهضاب جنوباً حوالي 300 متر فوق سطح البحر، ترتفع قرية مسعدة الواقعة في الجزء الشمالي حوالي 1000 متر فوق سطح البحر. هذا وترتفع الهضاب بصورة حادة في منطقة الشمال حيث تطاول جبل الشيخ على الحدود اللبنانية. وتظهر حدية ارتفاع الهضاب بمحاذاة الحدود الفلسطينية. فالسائر في سهل الحولة يبدو له في بعض المواقع وكأن الهضاب قد نحتت نحتاً وشكلت حاجزاً طبيعياً يحتضن إصبع الجليل وبحيرة طبرية. والهضاب ترتفع كلما توجهنا شرقاً وشمالاً.

يشعر المتوجه نحو مرتفعات الجولان من فلسطين، خاصة إذا كان خط سيره حول محيط بحيرة طبرية أنه يرتفع أولاً بصورة حادة ثم يبدأ بالارتفاع تدريجياً وكأن المرتفعات بدأت تأخذ ميلاً خفيفاً وأصبحت أقرب إلى الانبساط منها إلى الارتفاع التدريجي الواضح. أما من يحاول الوصول إليها من المنطقة الشمالية للاصبع الفلسطيني فانه يلاحظ الارتفاعات الحادة المتواصلة أثناء سيره نحو قرية مسعدة أو قرية مجدل شمس. وهذا يعود إلى أن شمال المرتفعات يتميز بارتفاعات الجبال الشاهقة والوديان السحيقة والسفوح الوعرة.

عدا عن منطقة الشمال، مرتفعات الجولان لا تتميز بالوعورة الا في جيوب منفردة لا تشكل طابعاً مميزاً. فيبدوا في منطقة القنيطرة التي تقع في جنوبي منطقة الشمال أن هناك هضاباً ومرتفعات تشكل مواقع عسكرية استراتيجية، إلا أن المنطقة تتميز بصورة عامة بعدم الوعورة وتغلب عليها المناطق السهلية التي يمكن أن تناسب النشاطات الزراعية. هذا وتبدو هناك هضاب متميزة بارتفاعها في أواسط المرتفعات وجنوبها، إلا أنها لا تضفي طابع الوعورة على المنطقة. إلا أن المرتفعات تبدو وعرة في نهاية منطقتها الجنوبية حيث الحدود الأردنية. فيبدو في الطرف الجنوبي نهر اليرموك في وادي سحيق تحيط به جبال حادة الارتفاع من الجانبين.

على الرغم من أن منطقة الوسط غير وعرة، إلا أن المسافر يشعر بارتفاعات وانخفاضات هنا وهناك. ويلاحظ المسافر أن المنطقة تصلح لتربية المواشي والرعي، ولكنه ليس من الصعب استصلاحها إذا توفرت مياه الري. أما المنطقة الجنوبية الشرقية المحاذية لخط فصل القوات فتبدو سهلية وصالحة للزراعة دون عناء الاستصلاح. ويلاحظ المسافر أن هذه المنطقة تعمر بمستوطنات أخذت تعتمد على الزراعة وتربية المواشي.

الجولان منطقة جميلة خاصة في فصل الربيع. ففي هذا الفصل تكتسي المرتفعات حلة خضراء مرصعة بمختلف ألوان الزهور وأنواعها. غابات المرتفعات جميلة على الرغم من قلتها. فمنها ما يغطي سفوح الجبال الوعرة خاصة في منطقة الشمال، ومنها ما يضفي على الهضاب قليلة الارتفاع المتلاحقة رونقاً يعجب الناظرين. ومع هذا الجمال الطبيعي، تتميز الجولان بتنوع مناخها. فدرجة الحرارة فيها تنخفض كلما توجهنا شمالاً. ففي الشمال، وعلى سفوح جبل الشيخ، يتميز الشتاء ببرده القارص ويتميز الصيف بنسيمه العليل ودرجات حرارته المعتدلة. أما في الجنوب فترتفع درجة الحرارة، ويبدو الشتاء أكثر دفئاً من شتاء الشمال والصيف أكثر حرارة، ومع هذا الاختلاف يختلف معدل سقوط الأمطار والثلوج فمما معدله حوالي 830ملم من المطر سنوياً في مجدل شمس ينخفض هذا المعدل إلى أقل من 500ملم في الجنوب بمحاذاة بحيرة طبرية. وأما الثلوج فلا تتساقط إلا في الشمال وخاصة على سفوح وقمم جبل الشيخ الجنوبية.

أما من ناحية الكثافة السكانية، فلا يجد المسافر عبر الجولان شمالاً ــ جنوباً أو شرقاً ــ غرباً عناء في ملاحظة عدم وجود كثافة سكانية. تبدو أغلب المناطق خاصة منطقتي الوسط والغرب المحاذي لإصبع الجليل غير آهلة بالسكان. تتناثر هنا وهناك مستوطنات إسرائيلية وكيبوتسات وقرى زراعية، إلا أنها أيضاً غير مأهولة، وما زالت إسرائيل عاجزة عن حشد عدد المستوطنين الذي خططت له. أما في منطقة شمال الهضبة، تقوم خمس قرى عربية تتجاور أربع منها والخامسة تبدو معزولة على الحدود السورية اللبنانية وهي قرية الغجر. أما باقي القرى العربية التي كانت تملأ المرتفعات فلا يرى منها الآن سوى الأطلال.

مع هذا الفراغ السكاني، يلاحظ المسافر أن الجنود يشكلون أغلبية المقيمين في مرتفعات الجولان. يشاهد الجنود على طرق المرتفعات وتشاهد معسكرات عديدة للجيش. إن المناظر العسكرية في المرتفعات تجعل المسافر يشعر بأنه في ساحة حرب أو أن الحرب على وشك أن تندلع.

الاحتلال الإسرائيلي لمرتفعات الجولان

تعتبر مرتفعات الجولان جزءاً من محافظة القنيطرة السورية. وقد تبعت إدارياً في وقت من الأوقات لدمشق ودرعا، ولكنها استقلت إدارياً عام 1964 وأخذت اسم محافظة القنيطرة وأصبحت مدينة القنيطرة مركزها الرئيسي. ضمت المحافظة قضاءين هما القنيطرة وزاوية، وضمت كذلك عدة نواح (مراكز إدارية فرعية) وهي

القنيطرة، خان ارينبه، الخشنية، مسعدة، زاوية والبطيحة. وضمت المحافظة ما مجموعه 163 قرية و 108 مزرعة فردية.

سقط في يد الاحتلال الإسرائيلي عام 1967 ما مساحته 250،ا كم^2 من مجموع مساحة محافظة القنيطرة والبالغ 1710كم^2. ضمت هذه المساحة 139 قرية و 61 مزرعة فردية. وقد قدر عدد سكان هذه القرى والمزارع بحوالي 110,000 نسمة. وهؤلاء يشكلون غالبية سكان محافظة القنيطرة في ذلك الوقت والذين كانوا يبلغون حوالي 140,000 نسمة فضلاً عن حوالي 10,000 من اللاجئين الفلسطينيين. وقد وقعت مدينة القنيطرة أيضاً تحت الاحتلال والتي مثلت أكبر تجمع سكاني في المنطقة إذ بلغ عدد سكانها 35.000 نسمة.

لم يتبق من القرى العربية السورية في المرتفعات بعد الاحتلال إلا عددا قليلا، وكذلك كان الوضع بالنسبة للسكان. فقد أورد الاحتلال عام 1967 إحصائية للقرى السورية المتبقية في المرتفعات وقال بأن عددها ثمان قرى وأن مجموع سكانها في حينه بلغ 6,369 نسمة. ويذكر أن العدد الآن يبلغ حوالي 19,000.

أجهز الاحتلال على القرى والمزارع الفردية المتبقية والبالغ عددها 131 قرية و 61 مزرعة فدمرها تماماً. لقد شطبت جميعها ولم يتبق منها إلا أطلال متناثرة. ويصدق هذا الكلام أيضاً بالنسبة لقرية المنصورة التي لم تكن لتصمد بعدد سكانها المتبقي والبالغ ستة أفراد فقط. لقد شطبت القرية ولم يبق منها ماثلاً إلا بعض الغرف المهجورة. وهذا ينطبق على مدينة القنيطرة أيضاً. فقد دمر الاحتلال الجزء الأكبر منها بعد عام 1967، وأجهز عليها نهائياً إلا من مئذنة مسجد بعد اتفاقية فصل القوات الموقعة من قبل كل من سوريا وإسرائيل عام 1974. ويذكر أن الاحتلال قد استعمل المدينة إبان سنوات الاحتلال للتدرب على حرب مدن. وقد أجبر هذا العمل المتبقين من سكانها على الخروج.

التهجير

أُجبر حوالي 93% من سكان مرتفعات الجولان بصورة مباشرة أو غير مباشرة على ترك أراضيهم وبيوتهم والتوجه شرقاً كلاجئين في الوطن الأم. ولم يصمد في وجه الاحتلال إلا عددا قليلا ممن ينتمون لمذهب التوحيد الدرزي. خرج الشركس والتركمان الذين كانوا يقطنون أواسط المرتفعات وكذلك المسلمون السنة الذين كانوا يتمركزون في الجنوب وبالقرب من بحيرة طبرية.

ربما يطرح أحد سؤالاً حول أسباب خضوع أغلبية سكان مرتفعات الجولان لأسباب التهجير بينما كان من المفروض أنهم تعلموا من تجربة الشعب العربي الفلسطيني حقيقة أن التمسك بالأرض أفضل بكثير من الرضوخ لسياسة التهجير مهما كلف ذلك من تضحيات. لقد تم تتبع حقيقة الأمر وتم استخلاص النتائج التالية:

أولاً: لم يكن الشعب العربي السوري على وعي جيد بظروف الشعب العربي الفلسطيني وبما كان يتوجب عليه أن يفعله في مواجهة الغزو الصهيوني. أي أن مدى استفادة السوريين من تجربة الفلسطينيين كانت محدودة بحيث لم يكن قد تبلور لديهم تفكير محدد حول ما يجب أن يفعلوه في حالة وقوعهم في براثن الصهاينة كما وقع الفلسطينيون. على العكس، يبدو أن أكثر ما كان يعلق في تفكير السوريين حول تجربة الفلسطينيين هو المذابح التي أقدم عليها الصهاينة في فلسطين وما أحدثته من رعب وهلع في صفوف الشعب الفلسطيني.

لم يكن الشعب العربي السوري في الجولان يتوقع من المحتلين الإسرائيليين خيراً. بل توقع منهم القتل والتنكيل. وقد ترسخ هذا التوقع لديهم عندما قامت الطائرات والمدافع الإسرائيلية بقصف أماكن تواجدهم لبث الرعب وإجبارهم على الرحيل.

ثانياً: تركز القتال عام 1967 بين القوات السورية وبين القوات الاسرائيلية في منطقتي الوسط والجنوب، وقد تعرضت المناطق السكنية في هاتين المنطقتين للقصف المدفعي والجوي. ويبدو أن القوات المعتدية كانت تتعمد ضرب الأهداف المدنية بغرض تفريغ الأرض من السكان. فالتفريغ إبان الحرب أسهل بكثير من بعد انتهاء الحرب وسير المعارك ذلك أنه من الأكثر قبولاً أن يقال أنهم هربوا من وجه المعارك بدل أنهم أجبروا على الرحيل. لكن الحقيقة تبقى أن معطيات حرب حزيران لم تكن على درجة من الحدة والعنف بحيث تبرر قصف الأهداف المدنية. إنما المبرر الوحيد الذي يقف وراء هذا القصف هو تفريغ الأرض من سكانها. فإسرائيل لم تحقق أحلامها التوسعية بعد، والجولان جزء من هذه الأحلام.

ثالثاً: أقدم الاحتلال الإسرائيلي على طرد سكان العديد من القرى مباشرة من قراهم. فعلى سبيل المثال، تم طرد سكان قرى زعورة، عين فيت، جباة الزيت، المنصورة، عين الزيوان، الخشنية، ممسية، بريقة، بطيحة، جويزة، واسط واسكيك. وهذه الخطوة منسجمة مع سياسته العامة والتي طبقها سابقاً في فلسطين. فهذا الاحتلال لا يرضيه السيطرة على الأرض وإنما يجب أن تكون هذه الأرض خالية من السكان حتى يتسنى له استيطانها بسهولة وبدون عراقيل أو منغصات.

رابعاً: نسبة لا بأس بها من سكان المرتفعات كانت تنتمي إلى قوميات أخرى غير القومية العربية كالشركس والتركمان. وقد كان يعتمد هؤلاء اقتصادياً إلى حد كبير على الوظائف التي كانت متوفرة عادة خارج المرتفعات. لم يعتمد هؤلاء على الأرض كمصدر رئيسي للرزق، وبالتالي لم يكن الارتباط بها بذات قوة ارتباط الذين يأكلون لقمة العيش من الأرض. وحيث أن الاحتلال قد قطع الطريق الرئيسي التي يعتمدون عليها في معاشهم فإنه كان من المتوقع أن يرضخوا للضغوط التي مورست ضدهم ويغادرون الأرض متوجهين شرقاً.

خامساً: ساعد عدم توزيع الأراضي في مرتفعات الجولان بطريقة معتدلة على عدم ترسيخ ارتباط الإنسان بالأرض. فمن المعروف أن مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للاستخدام كانت مسجلة بأسماء "مشايخ" القبائل أو الأمراء كما كان يدعى بعضهم. فقد كان الأمير يستخدم عدداً كبيراً من الفلاحين لقاء أجر زهيد يكفي الإنسان إلى حد الكفاف. وشأن هؤلاء المشايخ شأن الإقطاعيين في كل مكان. إنهم يستغلون طاقة الفلاح ويسخرونه في خدمتهم من أجل المحافظة على سلطانهم وجبروتهم.

كانت بعض ممارسات المشايخ في المرتفعات شاذة إلى حد كبير. فقد كانوا يعارضون غرس الأشجار المثمرة ويوافقون فقط على زراعة الحبوب كالقمح والشعير. فضلاً عن ضعف ارتباط الفلاح بالأرض التي يفلحها لأنه لا يمتلكها، زادت هذه الممارسة الغريبة من هذا الضعف. فالشجرة أقدر على شد الإنسان إلى الأرض من النباتات الموسمية. الشجرة ذات عطاء على مدى سنين طويلة، وجذورها هناك راسخة في الأرض. أما نبتة القمح فلا تكاد ترتفع بساقها حتى يبدأ لونها بالاصفرار ويحين حصادها. الشجرة مصدر رزق مستمر، والحبوب موسمية قد لا تكون هناك ضرورة لإعادة بذرها. بما أن الفلاح لم يجد في الأرض ديمومة الرزق، ولم يشعر باستقلاليته الاقتصادية لأنه لا يملك الأرض، فإنه لا شك من الصعب أن يطلب منه الموت فداء لأرض كانت تستهلك طاقته وجهده لقاء أجر زهيد. وقد كانت ضغوط التهديد والإرهاب والرعب والطرد أقوى من تجذّر الإنسان في الأرض وتمسكه بقطعة أرض لا يمتلكها.

باختصار، اضطر سكان الجولان إلى ترك قراهم وممتلكاتهم تحت ضغط العنف الإسرائيلي المتعمد والهادف إلى تفريغ الأرض من سكانها. وقد عملت الأخطاء التركيبية في البنيتين الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في الجولان قبل حرب 1967 على تيسير استجابة السكان للضغوط الإسرائيلية.

هذا ولم يخضع كل سكان الجولان للضغط، إذ بقي في الأرض حوالي 7% من مجموع السكان. وهؤلاء يسكنون الآن خمس قرى هي: مجدل شمس، مسعدة، بقعاثة، عين قنية والغجر. ولا شك بأن هناك أسباباً دعت هؤلاء السكان إلى تفضيل الصبر على الضغوط والبقاء في الأرض على الرحيل. تتلخص هذه الأسباب بما يلي:

أولاً: كانت تجربة سكان هذه القرى مع الاستعمار أعمق من تجربة القرى الأخرى في المرتفعات. فمن المعروف أن هذه القرى وخاصة مجدل شمس كانت هدفاً مباشراً لهجوم الاستعمار الفرنسي إبان الثورة السورية الكبرى والتي ابتدأت عام 1925. عمل الاستعمار الفرنسي على قصف هذه القرى وحرق العديد من بيوتها من أجل إركاع سكانها وتخليهم عن المساهمة في الثورة التي كان يقودها سلطان باشا الأطرش. هذا وما زالت آثار بعض البيوت التي دمرها الاستعمار الفرنسي قائمة. ففي مجدل شمس التي دمرت تماماً، ما زالت بعض جدران المنازل المدمرة قائمة حتى الآن. هذا وقد قدمت مجدل شمس وحدها 117 شهيداً إبان الثورة. ونظراً لعمق التجربة وتحمل المصائب والويلات الناجمة عن الحرب فانه لم يكن من السهل أن تضعف الإرادة الإنسانية، فاستمر السكان في تمسكهم ببيوتهم وأراضيهم.

ثانياً: اختلفت القاعدة الاقتصادية التي ارتكزت عليها هذه القرى عن القرى الأخرى، وكذلك أيضاً بالنسبة للتركيبة الاقتصادية. فمن ناحية التركيبة الاقتصادية، لم تعان هذه القرى من الإقطاع، وبالتالي لم يكن هناك من يتحكم بأرزاق الناس وتحديدها. فمن الجدير بالذكر أن قيادة المواطنين في تلك القرى قد بادرت إلى إلغاء الإقطاع ووزعت الأراضي على جميع السكان. ولذا يندر أن يجد المرء من لا يملك أرضاً من الناس. لكن الملكيات على أية حال، صغيرة جداً.

نظراً لتوزيع الأراضي، فان عدم الاستغلال والملكية الفردية قد ساعدا الفرد على تقوية شعوره بالانتماء للأرض. فهو لا يعمل من أجل أن يأكل غيره، بل من أجل أن يطعم أطفاله. ولهذا بلور توجهاً نحو استغلال الأرض بطريقة مغايرة عن زراعة الحبوب. فتوجه الفلاح نحو زراعة الأشجار التي تشكل قاعدة اقتصادية أكثر ثباتا وأكثر استمرارية من زراعة الشعير والعدس والفول. وبهذا أصبح الفلاح مشدوداً إلى الأرض بعاملين، عامل امتلاك الأرض وعامل وجود مصدر اقتصادي يعطي ثماره سنوياً.

ثالثاً: لم تكن منطقة شمال الجولان، حيث تقع هذه القرى، منطقة قتال عسكري عام 1967. لكن هذا لا يعني أنها نجت من القصف الإسرائيلي. فقد قصفت قرى مسعدة وبقعاثة وعين قنية بهدف إجبار سكانها على الرحيل، ألا أنهم وجدوا ملجأ لهم في مجدل شمس التي وفرت لهم أسباب الإقامة لحين انجلاء الوضع. على أية حال، لم يكن وضع هذه القرى العسكري سيئاً كما كان الوضع في القرى الأخرى.

رابعاً: لعب رجال الدين وكبار السن دوراً كبيراً في بقاء الناس في أرضهم. فهؤلاء أصحاب مبدأ وخبرة. ليس لدى رجل الدين استعداد لأن يغادر موقعه لأن في ذلك مساسا بإرادته على تحمل المشاق والصعاب. أما كبار السن فقد خبر بعضهم ظروف ثورة عام 1925 وعلموا أن الموت في الأرض أهون من الرحيل عنها. ولذلك تكاتف الجميع في سبيل منع الناس من الرحيل. وقد ذكر لنا أن بعض رجال الدين وكبار السن خرجوا إلى المنطقة الشرقية المؤدية إلى دمشق لرد كل من حاول الخروج على عقبيه. وقد نجحوا في ذلك.

ومما يذكر أن بعض سكان هذه القرى كانوا خارج المرتفعات قبل اندلاع حرب حزيران لأسباب مختلفة. من هؤلاء من رجع ومنهم من لم يتمكن.

سياسة الاحتلال العامة في الجولان

لم تختلف سياسة الاحتلال العامة في الجولان عن سياسته في الضفة الغربية وغزة من حيث تقوم على محاصرة الناس والتضييق عليهم اقتصاديا بطريقة تدفعهم نحو التخلي عن الأرض. أراد الاحتلال الأرض بدون سكان وقد

تسنى له ذلك بسهولة في مختلف أنحاء الجولان، أما في مناطق القرى الخمس فعمل على محاصرة الناس وحرمانهم من الامتداد في استغلال الأرض من خلال الأوامر العسكرية والحرمان من مصادر المياه. وقد فتح باب العمل في المزارع والمصانع الإسرائيلية علّ في ذلك ما يدفع الناس إلى ترك مزارع التفاح.

صادر الاحتلال الكثير من الأراضي، ومنع دخول مساحات أخرى. كما صادر بحيرة رم الواقعة بالقرب من القرى وحرم الناس من استعمال مياهها على الرغم من أنها تقع وسط المزارع العربية. وطبعا منع حفر الآبار وتطوير مصادر المياه. لكن الجهود الشعبية العربية عملت على الالتفاف على مختلف الإجراءات. فمثلا عمل الناس على جلب المياه من سوريا الأم من خلال وصل أنابيب مياه بأنابيب قد مدت من الشرق وتتدفق فيها المياه العذبة. وعملوا أيضا على إنشاء خزانات مياه حديدية ضخمة يتم ملؤها في فصل الشتاء بوساطة الضخ. حاول الاحتلال منع إقامة هذه الخزانات بالقوة إلا أن الناس استمروا في إقامتها أثناء الليل وعلى ضوء القمر. كانت تعمد الطواقم الخبيرة بإقامة هكذا خزانات إلى البناء الليلي بحيث ينتهي العمل بالخزان الواحد في ليلة واحدة. ولم يتوان الناس عن استصلاح الأراضي، فقد امتدت المزارع الجديدة على السفوح وفي الوديان إلى درجة أن مساحة الأراضي المستصلحة والمزروعة بالتفاح قد فاقت المساحة المزروعة أصلا.

قرية سحيته

بالإضافة إلى الخمس قرى المذكورة أعلاه والتي صمد أهلها أمام الضغوطات الإسرائيلية بقيت قرية صغيرة سادسة مأهولة بالسكان وهي قرية سحيتة التي تعتبر نموذجا لسياسة الاحتلال في الجولان. كانت تقع هذه القرية على مرتفع من الأرض جذب على ما يبدو اهتمام العسكريين الإسرائيليين. يقع هذا المرتفع الآن على خط فصل القوات من جهة الغرب ويبعد عن قرية مجدل شمس، كبرى القرى السورية في المرتفعات، حوالي أربعة كيلومترات.

كان يعيش في القرية ما يقرب من 300 شخص يملكون حوالي 10,000 دونم من الأرض. وقد تميز اقتصادها بالإقطاع. فقد كانت أغلبية السكان تعمل لدى الملاك الكبار وتعيش على الرعي وزراعة الحبوب، وتعتمد إلى حد ضئيل على زراعة الكرمة والتفاح. أثر احتلال المرتفعات سلبياً على اقتصاد القرية إذ وقع حوالي 60% من أراضيها في منطقة محظورة أمنياً. وفوق ذلك منع السكان من الوصول إلى مصادر المياه التي مدتهم بمياه الشرب ومياه الاستعمالات الزراعية. إذ وقعت هذه الينابيع أيضاً ضمن المنطقة المحظورة أمنياً. وقد أضعف شح المياه من اعتماد السكان على الماشية التي شكلت جزءاً لا بأس به من حياتهم الاقتصادية.

بدأ الاحتلال الإسرائيلي بمضايقة سكان هذه القرية في محاولة كما يبدو للاستيلاء على موقعها الاستراتيجي. تمثل أول هذه المضايقات بحظر السكان من دخول 80% من المساحة المتبقية لديهم من الأراضي. وقد زرعت هذه المنطقة بالألغام. وبذلك تبقى لدى السكان 20% فقط من المساحة التي تبقت لديهم بعد اقتطاع 60% كمنطقة

أمنية.كثف الاحتلال من ضغوطه ضد السكان في أماكن عامة لإرهابهم وإجبارهم على ترك القرية. وبدأ أيضاً باتهام بعض السكان بالتعاون مع الجمهورية العربية السورية والتستر على الفدائيين الذين يدخلون من الشرق. أعطت هذه الضغوط أكلها عام 1969 عندما رضخ بعض السكان وغادروا القرية. لكن القرية بقيت معمورة.

اشتدت شراسة الممارسات الإسرائيلية ضد المتبقين. فاعتقل مسنّون ودوهمت بيوت وقيد الناس إلى مراكز التحقيق حيث التنكيل والإذلال. وفوق هذا، عمل الاحتلال على منع الناس من الخروج بمواشيهم للرعي، ومنع العمال من التوجه إلى مراكز عملهم والفلاحين من الذهاب إلى بساتين التفاح التي تبقت لديهم. نظراً لتمسك الناس بقريتهم صدر أمر عسكري عام 1970 يجبر السكان على مغادرة القرية خلال ثلاثين يوماً. وهدد كل من يبقى في القرية بإخراجه بقوة السلاح. إزاء هذا الضغط، وافق السكان على التفاوض مع الحكم العسكري بشأن المنطقة التي يمكن أن يقطنوها. وقد عرض الحكم العسكري انتقال الناس إلى موقع إحدى القرى السورية المهجورة

واستغلال أراضيها كبديل لأراضيهم في سحيته، رفض السكان هذا العرض لسببين: يتمثل السبب الأول في انه لم يكن من الناحية المبدئية ما يدفع سوري إلى السكن في مكان سوري آخر أجبر على الخروج من بيته وأرضه، ويتمثل السبب الثاني في أن الأرض لا تباع ولا تستبدل ولا يمكن التنازل عنها. وأخيراً تم الاتفاق على أن يخرج السكان إلى منازل كانت مخصصة لأفراد في القوات السورية والكائنة في قرية مسعدة. وافق أهل القرية على مثل هذا الوضع لأن المنازل تعتبر ممتلكات عامة وليست خاصة، أما بالنسبة للأرض فقد رفضوا التخلي عنها أو استبدالها وبقيت ضمن ممتلكاتهم.

التدريز

التدريز يعني اعتبار المذهب الدرزي هوية ومنبع قومية. من سياسية اليهود الصهاينة تفتيت المجتمع العربي الذي يقع تحت طائلتهم بهدف تسهيل السيطرة عليهم وبث الفرقة فيما بين فئاتهم. تم استخدام هذا الأسلوب في فلسطين حيث أقنعت إسرائيل بعض قادة المذهب الدرزي بأنهم أصحاب هوية منفصلة عن المجتمع الأوسع وأن عليهم أن يتميزوا في أعيادهم وثقافتهم وطقوسهم وفي تعاملهم مع الدولة الصهيونية. وعليه، صنعت لهم الدولة مناسبات دينية خاصة وفرضت عليهم التجنيد الإجباري وصنعت لهم ثقافة خاصة تفصلهم تدريجيا عن مجتمعهم العربي. حاولت إسرائيل أن تطبق ذات السياسة على قرى الجولان بسبب اعتناق سكان أربع منها المذهب الدرزي، إلا أن المحاولات فشلت فشلا ذريعا.

فشلت سياسة التدريز بسبب وجود قوى سياسية ناصرية وشيوعية وبعثية في الجولان وبسبب وقوف رجال الدين في وجه هذه السياسة. استقطبت إسرائيل بعض العملاء وبعض رجال الدين لكن التيار العام كان أقوى من هؤلاء واستطاع التيار القومي أن يفرض نفسه. حتى أن إسرائيل حاولت أن تصنع لأهل الجولان نبيا وهو أبو ذر الغفاري الذي يقوم مقامه في منطقة البساتين وأن تجعل للاحتفال به يوما رسميا يشهد تعطيل المؤسسات

والاحتفالات مثلما فعلت في فلسطين. وعلى الرغم من أن الناس يعتبرون أبو ذر رجلا صالحا ويقيمون له مقاما متواضعا، إلا أن فكرة تحويله إلى نبي قوبلت بالاستهزاء.

الاستيطان

لم تكن إسرائيل بحاجة إلى جهد كبير للحصول على الأرض إذ دخلت الجولان فارغة من السكان، ولم تكن بحاجة إلى استصلاح أراض مضن بسبب الخصوبة المتميزة والانبساط في أغلب المناطق. هذا فضلا عن توفر مياه الأمطار والينابيع والبحيرات الصغيرة المؤقتة المتناثرة هنا وهناك. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن إسرائيل تنظر إلى الجولان على أنها جزء من أرض إسرائيل وأنها ذات أهمية استراتيجية من الناحية العسكرية فإنه لم يكن أمامها ما يعيق عملية الاستيطان.

بدأت إسرائيل عملية الاستيطان في الجولان في وقت مبكر بعد احتلالها عام 1967، وأقامت فيها حتى الآن حوالي 45 مستوطنة بسكان يبلغون حوالي 15,000 نسمة. تغلب على مستوطنات الجولان سمة الحياة الزراعية وذلك بسبب توفر السهول الخصبة الصالحة للزراعة وبسبب توفر المراعي المناسبة لتربية الأغنام والأبقار. مساحات الأراضي الشاسعة مفتوحة أمام المستوطنين في حين أنها مغلقة أمام أهل الجولان.

انظر الخريطة رقم (16).

فض الاشتباك

تغيرت الجغرافيا السياسة بعض الشيء بعد حرب عام 1973 وتوقيع سوريا على اتفاقية فض الاشتباك مع إسرائيل. بموجب هذه الاتفاقية تم سحب الجيش الإسرائيلي من المناطق الإضافية التي احتلها في حرب 1973 ومن منطقة ممتدة شمالا- جنوبا على الطرف الشرقي للجولان تبلغ مساحتها حوالي 150 كم2. انسحبت إسرائيل من هذا الشريط الذي أصبح منزوع السلاح ومن ضمنه مدينة القنيطرة، عاصمة محافظة الجولان. دمرت إسرائيل بيوت المدينة قبيل انسحابها، فتركتها سوريا على ما هي شاهدة على وحشية الاحتلال وبنت مدينة جديدة إلى الشمال الشرقي من الموقع الأصلي. (أنظر الخريطة رقم 17) هذا وقد حلت قوات دولية في هذا الشريط محل القوات الإسرائيلية لتشرف على وقف إطلاق النار المنصوص عليه في قرار مجلس الأمن رقم 338.

حاولت إسرائيل أن تعيد لسوريا القرى العربية عدا الغجر ضمن هذه الاتفاقية إلا أن سوريا رفضت والسبب أن إسرائيل أرادت أن تفرغ المنطقة من السكان العرب حتى لا يكون هناك ما ينغص عليها احتلالها.

ضم الجولان

أعلنت إسرائيل عام 1981 عن ضم الجولان وأصدرت قانونا خاصا في الكنيست يعتبر المنطقة خاضعة للقانون الإسرائيلي. حاولت بعدها فرض الجنية الإسرائيلية على السكان إلا أنهم رفضوا رفضا قاطعا. دارت مواجهة حامية بعدها بين قوات الأمن والسكان الذين صمدوا صمودا بطوليا لمدة خمسة أشهر في مواجهة مختلف صنوف

التنكيل وإجراءات القمع. حوصرت الجولان طيلة هذا الأشهر وعزلت عن العالم الخارجي تماما في محاولة لكسر إرادة الناس إلا أنهم أبوا أن يتسلموا بطاقات الهوية الإسرائيلية.

قامت إسرائيل بعد يأسها بتوزيع بطاقات الهوية على السكان بإلقائها من على الشرفات، وما كان من أهل الجولان إلا أن جمعوا الهويات وأحرقوها جماعيا. لم يتسلم بطاقات الهوية إلا عدد بسيط من الناس تم اعتبارهم جواسـيس وخون وصدر بحقهم قرار الحرمان. وهذا قرار يصدر عن رجال الدين وهو يعني إخراج الشـخص مـن الملـة وتحريم التعامل معه أو إلقاء التحية عليه. ولهذا وجد العملاء أن حياتهم في الجولان غير ممكنة ممـا اضـطرهم للخروج فارين بأنفسهم. وقد حدث في الجولان أن توفي أحدهم فلم ينهض أبناؤه لدفنه، وكان نصـيبه أن حملـه متطوعون في سيارة شحن صغيرة وألقوا بالجثة بعيدا في العراء.